

المستشرق الفرنسي كلود كاهن ومصادر الحروب الصليبية رسائل ضياء الدين بن الأثير أنموذجاً

د. علي حسين علي
قسم التاريخ – كلية التربية / جامعة كركوك

المقدمـة

تعد مرحلة الحروب الصليبية واحدة من أبرز مراحل التاريخ الأوربي في حقبة العصور الوسطى, فقد كتب عنها الكثير ألا إن الفرنسيين تميزوا عن سواهم من الأمم الأخرى بأنهم أكثر اهتماما بهذا الموضوع وتعلقا به ، من خلال عدّهم الحروب الصليبية مغامرة فرنسية بحته. هذا الأمر أدى إلى أن يتخصص الفرنسيون بالكتابة عن الحروب الصليبية بشكل أكثر غزارة مقارنة ببقية الأوربيين , وكتبوا دراسات متعددة في هذا الاتجاه, اذ نهضت المجامع العلمية الفرنسية والهيئات الخاصة ونفر من العلماء بإصدار مجموعات علمية نفيسة عنيت بالحروب الصليبية , ولعل أشهرها مجمع الكتابات والآداب (Academic des Inscriptions et Belles-Letters) الذي أسس عام (١٦٦٣ م) (١) واصدر مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية في ستة عشر مجلدا بترجمة فرنسية واختصت مجلدات منه بالمؤرخين الشرقيين فترجمة منتخبات من تاريخ أبي الفداء (ت ٧٣٢هـ /١٣٣١م), ومنتخبات من كتابي الكامل والباهر لعز الدين بن الأثير(ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) , كما ضم المجلد الثالث منتخبات من سيرة صلاح الدين لابن شداد(ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) وتاريخ مرآة الزمان لسبط بن الجوزي (ت٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) , وتاريخ حلب لأبن العديم (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م), فضلا عن كتاب الروضتين لأبي شامة(ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) وذيله(٢)

هذا إلى جانب إسهامات كلا من (ميشو Michaux) (٣)و(رينو Reinaud) (٤)في حقل الحروب الصليبية حيث قام الأخير بنشر كتاب باسم (ملخص ماكتبه مؤرخو العرب عن حروب الصليبيين) سنة (١٨٢٩) وكتاب (الحروب الصليبية من تاريخ الكامل لأبن الأثير) سنة (١٨٣٢) (٥). كما وجدت فرنسا لها منفذا للتدخل في شؤون بلاد الشام منذ أواسط القرن التاسع عشر على أثر ما عرف باسم الفتن الطائفية في جبل لبنان (٦)هذا الحافز السياسي دفع البحث ألاستشراقي باتجاهات متقدمة كان من بين مظاهرها الاهتمام بنشر مصادر الحروب الصليبية . وتوج ذلك بقيام أكاديمية النقوش والآداب الفرنسية بنشر وإصدار العمل الضخم الذي اضطلعت به وهو(مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية

Recueil des Histories des Croisades)، الذي بذلت جهوداً كبيرة لإخراجه في أكثر من نصف قرن من الزمن (١٨٤٤-١٩٠٦) ، وهو في أصله نشر وترجمة المصادر الأساسية عن تاريخ الحروب الصليبية وقد اشتملت المجموعة على خمسة أقسام هي : أ- المؤرخون الغربيون في الحروب الصليبية في خمسة أجزاء ، ب - قوانين مملكة القدس الصليبية في جزئين ، ج - المؤرخون الشرقيون في خمسة أجزاء ، د - المؤرخون اليونانيون في جزئين ، هـ - الوثائق الارمنية في جزئين[٧]وقد تعمق هذا الاهتمام مع احتلال فرنسا لسورية ولبنان في عشرينيات القرن الماضي وإطلاق الدعوات لإعادة دراسة الحروب الصليبية والوجود الصليبي في بلاد الشام تحت مسمى (فرنسا ماوراء البحار) [٨].
وفيما يخص هذا البحث سوف يصار الى دراسة جهد المستشرق كلود كاهن في احدى محطات دراسته لمصادر الحروب الصليبية ألا وهي دراساته لمراسلات الوزير والمنشئ والأديب البارز ضياء الدين بن الأثير الجزري (٥٥٨-٦٣٧هـ / ١١٦٣-١٢٣٩م) الذي تدرّج في الكتابة والإدارة بخدمة حاكم قلعة الموصل مجاهد الدين قايماز (ت٥٩٥هـ / ١١٩٨م) [٩] ثم التحق بخدمة الملك الأفضل بن صلاح الدين (٥٨٩-٥٩٢هـ / ١١٩٣-١١٩٦م) ثم بأبيه السلطان صلاح الدين[١٠] ، وهكذا عمل لسنوات ضمن الإدارة الكتابية للبيت الايوبي . ونسعى في هذه الدراسة إلى الوقوف على سيرة كاهن وإعماله في مجال التاريخ الإسلامي عامة وفي حقل الحروب الصليبية بشكل خاص ثم الكشف عن معالجة سبل تعامله مع نصوص الرسائل من حيث أماكن وجودها وتقييمه لأهميتها وإبرازه لثمين معلوماتها وأخيرا الوقوف على مدى ركونه لإحكامها وتفسيراتها لإحداث العصر الذي كتبت فيه .

سيرته وأعماله

كلود كاهن مستشرق ومؤرخ ماركسي فرسي ، تنحدر أصوله من عائلة يهودية فرنسية ولد في باريس في (٢٦/ شباط / ١٩٠٩) ، وبعد أن أكمل تعليمه الثانوي ألتحق بمدرسة المعلمين العليا ثم بالمدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية وبكلية الآداب في جامعة باريس ، وبذلك حصل على شهادة في التاريخ ومن ثم التحق بالمعهد العالمي للغات والحضارات الشرقية. تزوج كاهن وأصبح لديه ستّة أولاد بضمنهم المؤرخ ميشيل كاهن الذي كتب سيرة والده ، وفي عقد الثلاثينات من القرن الماضي عيّن مدرساً في الدراسة الثانوية في عدد من مدن فرنسا مثل (أميان Amiens) وفي (راون Rouen) وأخيرا حصل على شهادة الدكتوراه الموسومة "شمال سورية في عصر الحروب الصليبية" سنة (١٩٤٠)[١١].
كان عضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي منذ الثلاثينيات وحتى عام (١٩٦٠) ، وبقي بعد ذلك ماركسياً نشطاً وعلى الرغم من أصوله اليهودية فانه لم يعرّف نفسه بوصفه

يهودياً ولم يدعم دولة إسرائيل[١٢] ،بعد حصوله على الدكتوراه عمل أستاذا في كلية الآداب بجامعة ستراسبورج لسنوات (١٩٤٥- ١٩٥٩) ، وبعدها أستاذا في السوربون حتى عام (١٩٧٩) واثناء عمله في السوربون تولى كاهن رئاسة تحرير مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق(Journal of the Economic and Social history of the Orient) كما دعته جامعة ميشيكان سنة (١٩٦٧) ليدرس فيها ، وفي عام (١٩٧٣) انتخب عضواً في أكاديمية النقوش والآداب ، ثم صار رئيساً للجمعية الأسيوية لما يربو عن عشر سنوات (١٩٧٤-١٩٨٥) وبعدها أنتخب عضواً في معهد فرنسا (Institut de France) [١٣] .

وفيما يتعلق بإعماله فقد اختص في دراسات العصور الوسطى الإسلامية فضلاً عن اهتمامه بدراسة المصادر الإسلامية المتعلقة بالحروب الصليبية والتاريخ الاجتماعي للإسلام الوسيط[١٤] ، ولعل من أهم أعماله : المغول البلقان (منشور في المجلة التاريخية سنة ١٩٢٤) ، وتواريخ العرب المتعلقة بسوريا ومصر والعراق منذ الفتح العربي إلى السيطرة العثمانية في مكتبات استانبول (منشور في مجلة الدراسات الإسلامية لسنة ١٩٣٦) ، وصفحات تاريخ قديمة عن آخر الخلفاء الفاطميين (نشرة المعهد الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٣٧) ، وأخيراً تاريخ الشرق الإسلامي الاجتماعي والاقتصادي في العصر الوسيط (نشرة الدراسات الإسلامية لسنة ١٩٥٥) [١٥]، ونتيجة لغزارة أعماله ونتاجاته أطلق عليه (عميد دراسة التاريخ الاجتماعي الإسلامي) بوصفه واحداً من أكثر مؤرخي الإسلاميات تأثيراً في القرن العشرين وأفضل مؤرخ للشرق الأوسط في القرن نفسه ، فضلاً عن ان كثيراً من المستشرقين قد وصفوه بمؤرخ الأسلاميات المتميّز[١٦] .

ان عدد من الباحثين الذين تعرضوا لسيرته أكدوا بان كلود كاهن ــ بوصفه متخصصا في ميدان الدراسات التاريخية ــ قد عمل على إن يُدخل في مدرسة التاريخ الإسلامي المناهج التي عوّده عليها تكوينه العلمي ، وذلك بالحرص على الاهتمام بالتاريخ الاقتصادي وهو الأمر الذي لم يُعن به من قبل إلا قليلاً فيما يتعلق بدراسة تاريخ العالم الإسلامي في العصر الوسيط[١٧] ، وبعد أن اهتم بالصليبيين وعلاقتهم مع المسلمين أخذ في مجموعة من المقالات التي كتبها بالاتجاه الصريح نحو دراسة الإسلام : سواء في إيران وفي تركيا فضلاً عن البلاد العربية ، وحاول خدمة طلابه بان كتب عرضاً إجماليا عن

التاريخ الإسلام بعنوان "الإسلام" سنة (١٩٧٠) ، كما أسهم في كتابة بعض المواد في دائرة المعارف الإسلامية ، هذا إلى جانب أنه يدير مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق ، وهذه خاصية إنتاج كلود كاهن حيث جاء اهتمامه فيما يخص التاريخ الإسلامي بشكل عام عبر خطين : الاهتمام بالجانب الاقتصادي أولا ثم بالحياة الاجتماعية بدرجة اقل ، [١٨] . أُسر كاهن في الحرب العالمية الثانية ، وتثميناً لأعماله المتميزة فقد كُتب له في عام (١٩٩٥) كتاب تذكاري حمل عنوان (رحلات إلى الشرق) وبعد ذلك بما يقارب من سنة قامت مجلة (أرابيكا) أي في عام (١٩٩٦) وذلك بعد وفاته بإصدار عدداً خاصاً به ، من ضمنها ببلوغرافيا متكاملة لأعماله[١٩] .

كاهن ومصادر الحروب الصليبية .

يعد كاهن واحداً من كبار المستشرقين المختصين بحقل الحروب الصليبية وقد خصص لها العديد من بحوثه ودراساته لدراسة علاقة الشرق بالغرب في العصور الوسطى ، ولعل واحدة من أهم خصائصه أنه يجيد عدد من اللغات السامية فضلا عن قراءة النص العربي الدقيق وبذلك فهو يمتلك رأياً ومنهجاً خاص به كونه مستوعب لحركة الحروب الصليبية ومؤكداً على ضرورة أن يقوم المستشرق بوظيفة توفير النص وترجمته بنفسه , أي أن يصبح مستشرقاً ومؤرخاً في الوقت نفسه من أجل التعمق في معرفة عادات الشرق وتقاليده ولغاته سعيا لفهم أشمل وأوسع لتاريخه ، مشيراً ان من البديهي لدراسة أوجه الالتقاء والتأثير بين الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية أن تكون هناك زوايا تشمل جميع وجهات النظر وذلك لتحقيق نظرة شاملة للتاريخ ، ولا يُعقل أن يزعم أحد أنه بالإمكان تحقيق ضروب من التقدم الجدّي في هذا المجال من دون معرفة اللغات التي قد لا تُيسرها الحواجز الجامعية بين فروع المعرفة ، لكن لا بد للمؤرخ من أن يتمكن منها بنفسه [٢٠] .

وبذلك كان يسير بخطى متناظرة مع المستشرق الانجليزي هاملتون جب [٢١] في بحثه المتميز عن ملاحظاته حول الموارد العربية لتاريخ الصليبيين المبكر "Notes on the Arabic Materials For the History of the Early Crusades" المنشور باللغة الانجليزية في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية Bulletin of the School of Oriental and African Studies [٢٢] عندما ختم دراسته بالقول : أن هناك جهد كبير يقع على عاتق المستشرق وهو النقد التاريخي والنصّي للمصادر العربية, وأن لا يسلم بما يُنقل له أو يُترجم ، وإنما عليه بوصفه مستشرقاً أن يمتلك

التجهيز الكامل في هذا الحقل الجديد من النقد العالي " Higher Criticism " ليؤدي دوره الكامل ويصبح بالإمكان الحصول على تاريخٍ مقنعٍ للصليبيين وكامل التوازن [٢٣].

كذلك دبّج المستشرق الايطالي (فرانسيسكو غابريللي) وهو أستاذ اللغة العربية وآدابها في جامعة روما مقالاً مطولاً عن أعمال التأريخ العربية مشيراً أنه كان هناك إسهام مباشر للمستشرقين في الدراسات التاريخية الحديثة للحروب الصليبية وذلك لكتابة تاريخ (سيتون) الضخم للحروب الصليبية ، وهذا المشروع العظيم لم يقف على قدميه من دون جهود المساهمين الاختصاصيين فيه والذين قدموا تحليلاً مباشراً للتاريخ الشرقي مجموعاً من الخبرة المباشرة المطلوبة لعدد من العلماء مثل (هاملتون جب) وتلميذه وزميله الانجليزي (برناد لويس) وكذلك (كاهن) في فرنسا فلهؤلاء يعود فضل الدراسات المتخصصة والشاملة جداً في المصادر العربية للحروب الصليبية مع مصادر أحداث كثيرة في هذا التاريخ في العقود الماضية [٢٤].

على الرغم من الاسهام الفرنسي في دراسة المصادر العربية للحروب الصليبية فقد وجد كاهن إن ثمة الكثير لم يتم انجازه حيث إن عمل أكاديمية النقوش والآداب الفرنسية كان مجرد توفير نصوص دون دراستها أو نقدها أو حتى تحديد أهميتها لذلك آل على نفسه إن يكرس شطرا مهما من حياته في هذا الصدد وتجلى ذلك بوضوح في كتابه (سوريا الشمالية في فترة الحروب الصليبية) فقد خصص فصلا مهما عن المصادر العربية وغير العربية المتعلقة بتلك الحقبة[٢٥] ,وهناك كذلك إسهاماته الثمينة في الطبعة التي نشر بها كتاب (جان سوفاجيه) الموسوم (مقدمة في تاريخ الشرق المسلم) [٢٦] . كما كتب بحثا بعنوان الفرنجة في سوريا (نشرته المجلة الأسيوية سنة ١٩٣٧) ورسالة في السلاح كتبت لصلاح الدين الأيوبي (نشرته الدراسات الشرقية سنة ١٩٤٨) [٢٧] ,وفي عام (١٩٤٨) اكتشف وترجم ونشر مقتطفات من كتاب الطرسوسي في فن الحرب وفي السنة نفسها ظهرت طبعته لتاريخ (العظيمي) (ت٥٣٢ هـ/ ١١٣٨م) وهو من المؤرخين المسلمين الذين ظهروا مع بواكير مرحلة الحروب الصليبية[٢٨]، وفي عام (١٩٥٠) ترجم مقتطفات حفظها الذهبي وسبط ابن الجوزي لسعد الدين بن حمويه وهو الأمير الأيوبي الذي خدم الملك المعظم والأشرف والمظفر غازي والملك الصالح[٢٩]، وفي عام (١٩٥٤) نشر مقدمة الحملة الصليبية الأولى[٣٠]، وفي عام (١٩٥٧)نشر كتاب المكين بن العميد(ت٦٧٢ هـ/١٢٧٣م) الذي لم يكن معروفا قبل هذا التاريخ[٣١]، وفي عام (١٩٧٧) نشر وثيقة أصيلة من كتاب نهاية الإرب للنويري(ت ٧٣٢هـ /١٣٣١م) تتعلق بالسلطان الأخير للأيوبيين في مصر وهو الملك الصالح

المتضمنة للنصيحة التي وجهها لأبنه توران شاه ، فضلاً عن جمعه لمجموعة من نصوص تاريخ ابن أبي طيء(ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م) ولاسيما فيما يتعلق بتاريخ حلب[٣٢] ، وفي عام (١٩٨٦) نشر قسماً من التاريخ الصالحي لابن واصل (ت٦٩٧ هـ/١٢٩٨م)[٣٣] .

إن هذه القائمة الغنية من دراساته تظهر أصالة عمله والمنهج الذي اتبعه، فقد اعتمد على منهجية راسخة في دراسة ونشر وترجمة المصادر العربية عن الحروب الصليبية والتي يمكن إجمالها في أربع نقاط رئيسة وهي على النحو الأتي:

أولا:- اهتمامه بنقد المصادر العربية ونشرها وترجمتها ودراستها هو اهتمام أساسي ضمن مسيرته العلمية ولا يضارعه سوى اهتمامه بالدراسات الاقتصادية والى حد ما الاجتماعية ، وتأتي دراسته لمصادر الحروب الصليبية في مقدمة عملية الاهتمام بالمصادر.

ثانيا :- يتفرس في نص معين ذو قيمة ثمينة وأصالة وعلى ضوء ذلك يكرس نفسه لدراسته بمعنى ان اختيار الضوابط والقواعد التي يلتزم بها في النشر والتحقيق هي قواعد بالغة التشديد فهو لم يسع لتحقيق أو ترجمة أو نشر أي نص اعتباطيا حتى لو كان مخطوطا وأنما يختار بعناية المصدر الذي يتضمن أقصى فائدة لتقديم إسهام أصيل ٠ وفيما يتعلق برسائل ضياء الدين بن الأثير وجد مادة ثمينة لم يهتم بها احد قبله نتيجة ما تكتنزه من معرفة ، لذلك أقدم على دراستها وكذلك الأمر بالنسبة لنصوص ابن أبي طئ والمكين بن العميد ٠ وهذه الفكرة لم تطبق ــ برأي كاهن ــ على ناشري المصادر العربية سواء في الشرق أو الغرب لان اختيار النص الثمين لابد أن ترافقه عملية صعبة من مقارنة النصوص وجمع نسخ المخطوطات بل الأمر يتطلب أحيانا الاتصال بالمكتبيين والبحث عن المخطوطات في كل مكان[٣٤] .

ثالثا:- غير معني بنشر وترجمة النصوص كاملة فهو يسع جاهدا لنشر الفقرات الأصيلة من النص لان همّه الأساس تبيان ما تتضمنه هذه النصوص من قيمة تاريخية كبيرة ، وفي ذات الوقت ينبه الباحثين إلى محتويات المصادر وأماكن وجودها وما تتضمنه من نصوص . مثال ذلك ما قام به من نشر مقتطفات من كتاب الطرسوسي في فن الحرب أو نشره لوثيقة أصيلة من نهاية الأرب للنويري تتعلق بتاريخ آخر الملوك الأيوبيون في مصر.

رابعا :- تنبيه الباحثين إلى الإمكانيات المستقبلية في دراسة ونشر المصادر الأولية ، بمعنى أنه لا يكتف بتقديم المعلومات وإنما يجعل همّه توجيه الأنظار صوب المستقبل ٠ نظير دعواته المتكررة إلى أعاده نشر وتحقيق كتاب الكامل لابن الأثير وتنبيهه للمستشرقين إلى دراسة كتاب ابن الشحنة الذي اختصر كتاب بغية الطلب لابن العديم[٣٥] .

ومهما يكن من أمر فان كاهن يكشف عن تعاطف عميق في بعض دراساته وأبحاثه تجاه تاريخ المنطقة العربية الإسلامية في العصور الوسطى ، أو بعبارة أخرى يرى وان كانت الحروب الصليبية مبادرة أوربية نمت وانطلقت من الغرب وهو في هذه الحالة الأقدر على دراستها إلا أنه في اللحظة التي وصلت فيها الحملات الصليبية إلى الشرق أصبح من المنطقي أن يقوم الشرقيون بدراستها فالأحرى أن يدرس الشرق تلك الأزمنة التي حدث خلالها صراع أو التقاء مع منتجات الحضارة الغربية .

كاهن ورسائل ضياء الدين بن الأثير

طالع المستشرق كلود كاهن قُراءه ببحثه وعمله المتميز الذي فصّل في قيمة رسائل ضياء الدين بن الأثير بوصفها مصدراً تاريخياً مهماً ، والموسوم بـ "مراسلات ضياء الدين بن الأثير – قائمة برسائل ونصوص لوثائق رسمية "Lacorrespondance de Diyâ ad-Din ibn al-Athir list de letter et textes de diplomes" المنشور باللغة الفرنسية في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية (Bulletin of the School of Oriental and African Studies) بجامعة لندن سنة (١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م)[٣٦]ومن ثمة فان هذه الدراسة مثلت القاعدة التي انطلق منها من أراد معالجة قيمة كتابات ضياء الدين بن الأثير وإبرازها بوصفها مصدراً تاريخياً مهماً عن مرحلة الحروب الصليبية .

يتناول هذا المبحث ثلاثة محاور أساسية قسمت بحسب ما جاء في دراسة كاهن للرسائل من حيث (أ) عرضه لأهم مخطوطات الرسائل وأماكن وجودها،(ب) الإشارة إلى سيرة ضياء الدين ،(ج) وأخيراً نبّه كاهن إلى إبراز قيمتها التاريخية وذلك بعد أن قام بتقديم موجز عرض فيه لعناوين عدد من الرسائل في إشارات سريعة محاولاً حصر مجموعة منها في سياق أو موضوع خاص .

(أ) أهم المخطوطات وأماكن وجودها .

نبّه كاهن في ثنايا دراسته أعلاه ومنذ الوهلة الأولى إلى اهتمام المستشرق الانجليزي (مارجوليوث D.S.Margoliouth) [٣٧] (١٢٧٥-١٣٥٩هـ / ١٨٥٨-١٩٤٠م) برسائل ضياء الدين بن الأثير وذلك ضمن مقال خاص شارك فيه مارجوليوث ضمن أعمال مؤتمر المستشرقين العاشر في ليدن سنة (١٣١٤هـ / ١٨٩٦م) معتمداً على مخطوطة ضمّت عدداً من الرسائل في مكتبة البودليان [٣٨] (Bodleian) تحت رقم (Pococke ٣٢٢) والتي لا تضم سوى الرسائل التي أصدرها أو كتبها ضياء الدين بن الأثير في سنوات حياته الأخيرة

[٣٩]، ألا أن (مارجوليوث) لم يعرف سوى هذه المخطوطة ولم يحدد عـدد الرسـائل التـي احتوتها ولم يقدم المواصفات الكاملة والدقيقة المعهودة في مواصفات مخطوطـة البودليـان ، وهكذا أتيح لهذه الرسائل ومنذ وقت مبكر نسبياً أن تلقي بثقلها وتبـرز قيمتهـا إلـى جانـب المصادر العربية والإسلامية الأخرى بوصفها مصدراً تاريخياً مهماً عن طبيعة عـصر ابـن الأثير ، ومثلت دعوة للتنبه والالتفات لنسخ مخطوطات الرسائل الأخـرى حيثمـا يمكـن أن توجد.

ويبدو ان من أروع ما جادت به دراسة كاهن حديثه المفصّل عن نسخ المخطوطـات الخاصة بالرسائل مبيناً اهميتها وأماكن وجودها ، إلى جانب الإشارة إلى تزمين مجموعة من الأحداث التي عالجتها تلك المخطوطات من حياة المؤلف ضياء الدين بن الأثيـر ، ويمكـن عرض هذه المخطوطات على النحوالآتي : -

١- الإشارة إلى مخطوطة مكتبة البودليان ، التي احتوت على رسائل الحقبة الأخيرة من حياة المؤلف [٤٠].

٢- مخطوطة (طوبقوسراي) تحت رقم " Top – Kapu ٢٦٣٠ " التي لم تتوفر لكـاهن فرصة الاطلاع عليها ثم دراستها [٤١].

٣- مخـطوطة أخـرى تخـص حقبـة لاحقـة مـن حـياة ضياء الـدين ، كانت قد اقتنيت من قبل مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن " School of Oriental and African Studies " وهي تحتوي على مخطوطة أخرى في مجلد واحد [٤٢].

٤- قطعة أخرى"مجموعة رسائل" في برلين تعود للمستـشرق اهلـورت تحـت رقـم "Ahlwardt Berlin ٨٦٢ " [٤٣].

٥- مخطوطة أخرى ، تختص بالحقبة المتقدمة من حياة ضياء الدين بن الأثير الشخصية حتى عام (٦١١هـ / ١٢١٤م) تقريباً [٤٤]، هذه المخطوطة تحتوي علـى (٢١٥) رسالة وهي ضمن مجموع شامل لمخطوطات ترجع إلى القرن الحادي عشر وحتـى الخامس عشر الميلادي يوجد في المكتبة الوطنية بباريس, ومما تجدر الإشارة إليه أن

٦- هذه المخطوطة تعود لشخص عراقي (؟) كان قد وضعها لفترة قصيرة جداً في المكتبة الوطنية بباريس ثم عاد فاستردها (!) لذلك لم يتح لكاهن من الوقت أكثر مما يسمح بتسجيل عناوين الرسائل ، الأمر الذي أعاق دراسته لها [٤٥].

ولعل ما يدفع إلى القول ان إسهام كاهن هو الذي حفّز الباحثين العرب للمضي في هـذا الحقل ــ على اعتبار ان دراسته للرسائل مثلت القاعدة التي انطلقت منها الدراسات اللاحقة سواء أكانت إسلامية شرقية أم أوربية غربية ــ هو ما تلى هذه الدراسة من اهتمامات بجمع وتحقيق عدد من مخطوطات الرسائل , وأول من حاز قصب السبق واهتم وشمر لتحقيق مـا توفر من مخطوطات الرسائل هو (أنيس المقدسي) أستاذ الأدب العربي في جامعة بيروت الأمريكية ضمن جهود ثمينة له في إحياء التراث العربي الإسلامي وتم له تحقيق مخطوطة مكتبة احمد الثالث باسطنبول التي شجع المجمع العلمي العراقي على نشرها وتعهد بقسم كبيـر من نفقات طبعها سنة (١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م) [٤٦]وهـي نفسها مخطوطة طوبقوسراي التي سبق وأن أشار إليها كاهن كما ألمح إليها كـلاً مـن (كـارل بروكلمـان) و(روزنثال) [٤٧]. بعدها جاءت نشرة الأستاذ (هلال ناجي) لنسخة مخطوطة أخرى من مجاميع المخطوطات ، أصلها محفوظ في مكتبة يافت بالجامعة الأمريكية في بيروت والتي حققها سنة (١٤٠٣هـ /١٩٨٢م) [٤٨]،وأخيراً جاءت نشرة السيد (هلال ناجي) بالتعاون مـع الأستاذ الدكتور(نوري حمودي القيسي) لنسخة مخطوطة ثالثة من مخطوطات الرسائل أصلها محفوظ في مكتبة نور عثمانية باسطنبول والتي حققاها سنة (١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م)[٤٩].

وعلى وفق ماتقدم يمكن القول بقدر كبير من الاطمئنان انه على الرغم من التنويهات والإشارات الأولى للرسائل من قبل كل من مارجوليوث وكاهن ، فقد جاءت دراسات عربية وإسلامية ، استطاعت إثبات هويتها العربية ، وقدمت إسهاما متميزاً على صعيد الرسائل وتحقيقها والاهتمام بدراستها ، بل أنها نجحت في إثبات وجودها ومناجزة الدراسات الاستشراقية والتفوق عليها .

(ب) عرضه لسيرة ضياء الدين بن الأثير .

أشار كاهن منذ الوهلة الأولى إلى أنه استقى معين معارفه عن سيرة ضياء الدين بـن الأثير من ابن خلكان (ت٦٨١هـ / ١٢٨٢م) [٥٠] وذلك في أربع إشارات صريحة منه في دراسته عن الرسائل , ولعل كاهن قد فاته الاطلاع إلى مخطوطة قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان لابن الشعار الموصلي (ت٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) [٥١] وغيرها من

المصادر الاخرى التي تعرضت لدراسة حياة ضياء الدين بن الأثير أو لجانب منها[٥٢] ، وأكتفي بابن خلكان فقط .

صرّح كاهن بان ابن الأثير ولد سنة (٥٥٨هـ / ١١٦٣م) وهو أخ للمؤرخ الكبيـر عز الدين بن الأثير[٥٣]وهو بذلك يعطيه صفة تعريفية اكبر من حيث إخوته بعز الدين ، وأنـه

كوّن بدايات شخصيته في خدمة مجاهد الدين قايماز الذي حكم قلعة الموصل خلال سنوات (٥٧١-٥٩٥هـ / ١١٧٥-١١٩٨م) والتي حرر العديد من الرسائل باسمه ، وهنا يعلن كاهن عن عجزه لإمكانية تحديد تزمين الرسائل جميعاً التي حررت أثناء وجود ابن الأثير في الموصل والتي يجب أن تكون جميعها قبل سنة (٥٨٧هـ) وهو التاريخ الذي ترك فيه ضياء الدين الموصل(٥٤) . كما وضح كاهن إلى عمق الوشائج الرابطة بين ضياء الدين وقايماز لدرجة دفعت بابن الأثير أن يصفه أو ينعته بإحدى رسائله باسم (والدي)(٥٥) مُذكّراً بالدور الذي لعبه مجاهد الدين في الدفاع عن مدينة الموصل ضد المحاولات المتكررة لحصارها من قبل السلطان صلاح الدين الأيوبي وخاصة سنة (٥٨١هـ/ ١١٨٥ م)(٥٦) .

وهنا يدخل كاهن في مسألة شائكة من دون الفكاك منها وهي خاصة بتاريخ التحاق ضياء الدين بخدمة السلطان صلاح الدين معتمداً على ابن خلكان وهي سنة (٥٨٧هـ/ ١١٩٢م) (٥٧)، لكنه في الوقت نفسه يؤكد بان مخطوطة البودليان (٥٨) فضلاً عن كتاب " المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر" ــ وهو من أشهر كتب ضياء الدين عن فن الإنشاء والترسل ــ يحتفظان برسالة كتبها ضياء الدين عن لسان السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٨٣هـ / ١١٨٧م) موجهة إلى الخليفة العباسي الناصر الدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ / ١١٧٩-١٢٢٥م) تبشر بفتح بيت المقدس (٥٩)، وعلى الرغم من تنويه كاهن بان الرسالة أعلاه جاءت من باب المنافسة والمحاكاة لأسلوب القاضي الفاضل ، لكنه في نهاية المطاف يعود ويختم كلامه بالقول : "وهذا كله يدل في كل مرة على أن مؤلفنا كان بالقرب من صلاح الدين"(٦٠). من دون شك فان كاهن هنا قد ابقى الباب مواربا ولم يمتلك القناعة الكاملة للبت في قطعية أن الرسائل كُتبت في وقتها ومناسباتها, أم أنها كُتبت تباعاً لغرض المحاكاة ، ولو أجهد نفسه قليلاً فقط في قراءة عناوين الرسائل ضمن المخطوطات التي أشار إليها في دراسته لأمكنه القول بملء فمه أن اغلبها كتبت في وقتها , ثم يسهُل عليه تحديد تاريخ التحاق ضياء الدين بخدمة البيت الأيوبي ولاسيما بالسلطان صلاح الدين .

مما يعزز هذا الميل هو الإشارة إلى أمر مفاده : بما أن المصادر التاريخية الأولية لا تذكر – باستثناء ابن خلكان أو من نقل عنه (٦١)– بالتحديد تاريخ التحاق ضياء الدين بخدمة السلطان صلاح الدين ، فان من الواضح جداً أن سنة (٥٨٣هـ / ١١٨٧م) هي تاريخ انتساب ابن الأثير إلى خدمة البيت الأيوبي والتي جاءت مبكرة بدليل نص إحدى الرسائل – وهي الأكثر موثوقية – التي كتبها ضياء الدين عن لسان الملك الأفضل (٥٨٩-٥٩٢هـ / ١١٩٣-١١٩٦م) مما يعني أنه كان في خدمته والتي عنوانها " كتاب كتبه عن مخدومه الملك الأفضل علي بن يوسف إلى والده الملك الناصر صلاح الدين عند نصرته على الفرنج بأرض طبرية

في ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وذلك أول موطن حرب شهده الأفضل ، وكان والده إذ ذاك نازلاً على حصار حصن الكرك "[٦٢] , وهذه الرسالة تقدم دليل واضح ينـــاقض ماطرحه عزالدين بن الاثير بان اول صدام للملك الافضل مع الصليبيين كان برفقة والده فـــي معركة حطين[٦٣] .

والجدير بالملاحظة ، أن هذه الرسالة ليست من باب إخبار صلاح الدين بما حصل من نتائج المعركة وذلك لان الملك الأفضل كان مع والده السلطان وبمعيته ، لكن الهدف منها اطـــلاع السلطان على جودة صورة المشاركة الجهادية التي قام بها الابن مع والده ، هذه الصورة التي حسّنها كاتب وأديب عاش أحداثها وشاهد وقائعها التي يمكن عدّها خدمة ذاتية لنفسه بوصـــفها عرضاً لقدراته الأدبية وبراعته الخطابية مما يوسع له الآفاق في المستقبل ضمن خدمة البيت الأيوبي, بغية التوصل إلى عميد هذا البيت على نحو مباشر وهو ما تم في قابل الأيام .

وهكذا تبدو صلة ضياء الدين بالبيت الأيوبي واضحة المعالم من خلال عملـــه كاتبـــاً للملك الأفضل ، ورسائله من هذا اللون (العسكري / الجهادي) مكنته مـــن تعميـــق صـــلته بالسلطان صلاح الدين ، وبذلك لا يُستبعد بل يشجع على القول انه كتب له عدداً من الرسائل موجهة إلى ديوان الخلافة العباسية ، وما يؤكد ذلك رسالة أخرى كتبها ضياء الدين عن لسان السلطان صلاح الدين سنة (٥٨٣هـــ /١١٨٧م) التي عنوانها " كتاب كتبه عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى ديوان الخلافة ببغداد يتضمن فتح بيت المقدس واســـتنقاذه من أيدي الكفار ، وذلك في معارضة كتاب كتبه عبد الرحيم بن علي البيساني عنه وكان الفتح في السابع والعشرين من رجب سنة ثلاث وثمانون وخمسمائة"[٦٤].

وتأسيساً لما سبق يمكن القول أن ما تقدم لا يتلاءم مع ما ورد عن قلم ابن خلكان في وفياته الشهيرة من أن التحاق ضياء الدين بن الأثير بخدمة البيت الأيوبي ولاسيما بالـــسلطان صلاح الدين كان في سنة (٥٨٧هـــ / ١١٩١م) بقوله : "ولما كملت لضياء الـــدين الأدوات قصد جناب الملك الناصر صلاح الدين ، تغمده الله برحمته ، وفي شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وصله القاضي الفاضل لخدمة صلاح الدين في جمادي الآخرة من السنة وأقام عنده إلى شوال من السنة , ثم طلبه ولده الأفضل نورالدين من والده , فخيـــره صـــلاح الدين بين الإقامة في خدمته , والانتقال إلى ولده , ... فاختار ولده , فمضى إليه " [٦٥]. بـــل الواضح أن الالتحاق كان قبل ذلك بـــ خمس أو أربع سنوات في الأقل ، أما القول الوارد في النص من أن السلطان خيّره بين البقاء معه أو الالتحاق بابنه الأفضل فلا غبار علـــى هـــذا , ولكن الغبار يعتور التاريخ وليس الحدث ، التاريخ الذي وضعه ابن خلكان الذي هـــو برأينـــا متأخر عن حقيقة الخبر بـــ أربع سنوات .

وأشار كاهن مانصه " هناك الكثير من الرسائل أرسلت من قبل ضياء الدين إلى هـذا أو ذاك من اخوته ، وبالمحصلة فهو لديه اخوة آخرين, فضلاً عن المؤرخ عز الدين والمحدث مجد الدين "(٦٦) ولعل كثرة إشارات ضياء الدين في رسائله إلى إخوة له في الموصل أو في دمشق أو في حلب وغيرها من الأمصار الأخرى هو ما دفع كاهن إلى الاجتهاد أعـلاه , إلا أن المقصود في الحقيقة اخوانه او خلانه بالمعنى العام وليس بالمعنى الدقيق الذي ينـصرف الى الاخوة نسباً , وقدحة من كاهن هنا لم تُبن على أساس .

تحدث كاهن في إشارات سريعة إلى حالة الملك الأفضل في دمشق ثم في صرخد[٦٧] وذلك بعد إقصائه عن دمشق متحدثاً بذلك عن جدلية العلاقة بين الأفضل وعمه العـادل أزاء أطماع الأخير المتواصلة تجاه أملاك أبناء أخيه صلاح الدين هذه الأطماع دفعت الأفضل إلى التحالف مع السلطان السلجوقي ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان بن مسعود صاحب بـلاد الروم وقطع الخطبة عن عمه العادل[٦٨] ، وبطبيعة الحال جعل كاهن من ضياء الدين محوراً لحديثه عن هذا الصراع المحتدم[٦٩] فقد أشار المؤرخون إلى أنه وصلت إلى مصر الأنبـاء عن تجاوزات الوزير ضياء الدين الجزري في دمشق وسوء سياسته تجاه الأمراء والرعيـة ، وإزاء ذلك وعد الملك العادل كبار أمراء مصر بالتخلص منه وقرر مع الملك العزيز عثمـان تسيير عسكره معه إلى الشام ليمهد له قاعدة الملك في بلاد الإسلام[٧٠] ، وهنا لم يمنع اهتمـام كاهن بضياء الدين وحرصه على دراسته الى ان يعود الى تكرار ما تعارف عليه المؤرخون من نسبة انهيار مُلك الافضل الى سوء سيرة وزيره ابن الاثير حيث يقول كاهن هنـا " وقـد تحدث عنه المؤرخون وكأنه رديف سيء للأفضل والذي على أية حال بقي ملاحقاً له لفتـرة طويلة "[٧١] ولم يحاول هنا ان يتجاوز ذلك لتبرئة ابن الاثير اوللتنبيه الى مسألة ان ذلك هـو ماساقه خصوم ابن الاثير واعتبرها وكأنها حقائق لا يطالها جدل , ولم يـسع للبحـث عـن تبريرات لموقف ابن الاثير من خلال رسائله التي قد يجد فيها مايبرر السلوك السياسي الـذي قام به .

ج – القيمة التاريخية للرسائل

قدّم كاهن عرضاً سريعاً ووافياً إلى حدٍ ما لعنـاوين الرسـائل التـي طالعهـا فـي المخطوطات التي أشرنا إليها سابقاً ، وفي الأعم الأغلب يكتفي بذكر عناوينها فقط مـن دون الإشارة إلى ما حوتهُ تلك الرسائل من أحداث ووقائع ، إلا أننا نجده في حالات أخرى يـسعى لربط الرسائل مع بعضها البعض ويجعلها تنتظم حول خيط ناظم لها أو فكرة تتمحور حولها ، وفي حالة ثالثة نادراً ما يُقدم نحو إعطاء تحليلاً وافياً لواحدة أو اثنتين منها أو يجري مقارنـة

بين الرسائل أو لعله يقف عند واحدة منها بعد أن تُثير لديه موضوعاً مهماً كأن ينصب مثلاً حول نظم الإدارة الأيوبية في عصر ضياء الدين بن الأثير .

أشار كاهن إلى كثرة الموضوعات التي عالجتها الرسائل في شتى جوانب العصر الذي كتبت فيه, وهي لا تعكس فقط نشاطات رجل ومنشئ وأداري نظير ضياء الدين بن الأثير ، بل تكشف كذلك في جانب منها طبيعة عصره وتداعياته ، فهي تخص التهاني والتعازي ومناسبات الصداقة وحكايات جلسات السمر, وبعضها كتبت في أمر ديني كرسائل تخص قضايا الحج ، أو جوانب عسكرية حربية ضد الأفرنج أو في أمر إداري, أو أدبي, أو إخواني للتشفع لأحد الأصدقاء لدى بعض الأمراء أو الحكام وغيرها من الموضوعات الأخرى[٧٢] .

فقد المح كاهن في نقده للرسائل انه على الرغم من أهميتها وتقديمها إضاءات لجوانب غامضة من عصر ابن الأثير إلا أنها في ذات الوقت جاءت على نحو غير منتظم ومن دون أي تنسيق أو تسلسل أو موضوعية[٧٣] . فلم يراعِ فيها الترتيب الزماني أو المكاني أو الموضوعي ، وان مؤلفها لم يذكر شيئاً عن كيفية اهتمامه بكتابتها وتنظيمها، وما يمكن الاجتهاد فيه ان ضياء الدين لم يرتب رسائله زمانياً (بداية حياته الأولى ، أحداث بلاد الشام ، حياته الأخيرة في الموصل) أو مكانياً (جزيرة ابن عمر ، الموصل ، دمشق ، صرخد ، القاهرة ، بغداد) ، أو بحسب الأحداث (صليبي ، اتابكي ، أيوبي ، ما هو خاص بديوان الخلافة) ، وهكذا حفظت الرسائل لقيمتها الأدبية أكثر من كونها ذات قيمة تاريخية ، لذلك جاء ترتيبها اعتباطي ومتناثر من تاريخ وأدب واخوانيات وقصص ونوادر وجلسات سمر ، ولا نستطيع القول ان ضياء الدين غير مسؤول عن ذلك ، فغالباً مايكون هو المسؤول فهو الذي فككها ووزعها ثم نقلها أو أملاها على من نقلها بهذه الصورة .

ومن باب إبراز القيمة التاريخية للرسائل ، فقد أفصح كاهن إلى انه اطلع على عناوين رسائل عدّة في المخطوطات التي أشار إليها , وتمكن من قراءة بعضها والتي تأسف كثيراً لضياع وفقدان العديد من صفحاتها[٧٤] ، واشد ماجذب كاهن الرسائل التي تضمنت مادة وثائقية ثمينة من قبيل التعيينات في وظائف عدّة مثل تعيين صاحب الحسبة ، ووثيقة تنازل الملك الأفضل لأوقاف القدس والساحل ووثيقة إلغاء المكوس[٧٥] . وهذه الإشارات جاءت بمثابة دعوة للاستفادة من الرسائل المتعلقة والمهمة بأحداث العصر ، وتفصح عن تزايد الحاجة الى دراسة هذه الرسائل واستنباط الحقائق التاريخية المتضمنة فيها , ولابد من ان تجري محاولات متواصلة لوضعها في إطارها التاريخي كونها تتضمن قيمة تاريخية كبيرة بحاجة إلى ان

تستخلص وتعتصر من ثنايا نص الرسائل الأنشائية لاعطاء صورة متكاملة لعصر ابن الأثير أو لجانب من جوانبه .

وبفعل اهتمامه الاستثنائي بدراسة التاريخ الاقتصادي والاداري الأيوبي فهو يختار لواحدة من أهم الوثائق الإدارية في عهد الملك الأفضل, ولعلها مثلت امتداداً لإدارة السلطان صلاح الدين كونها تغطي موضوعاً مهماً ناتجاً من ندرة المعلومات التي قدمتها المصادر التاريخية الأولية بشأن النظم الأيوبية ولاسيما في شمال الشام والجزيرة , وعليه فهو لم يختر وثيقة ذات طابع سياسي بسبب غنى الأدلة في الكتب التاريخية وانما اختار وثيقة ذات طابع إداري أطلق عليها اسم "وثيقة الوالي"[٧٦] (Diplome de Wali) بعرضه مقارنة أجراها لإحدى الرسائل التي طالعها ــ والتي لا توجد اطلاقاً في النشرات الثلاث التي حققها كل من المقدسي وناجي والقيسي ــ التي أوضحت واجبات الوالي في الدولة الأيوبية وحقوقه ، ومن خلال تحليله لهذه الوثيقة وجد تمييزاً واضحاً بين امتيازات الوالي وامتيازات المقطع أو الإقطاعي ، فخلص الى ان هذه الوثيقة تؤكد على ان الضرائب التي تجبى في المنطقة التابعة للوالي هي مسجلة في ديوان الأمير (ويقصد بذلك الملك الأفضل مثلاً) وانه يقبض مرتبه عن طريق مخصصات قد حُددت تفاصيلها ضمنياً ، أما المقطع فانه يأخذ تنظيم ضرائبه من قبل الإقطاع التابع له ، الذي يتوجب عليه – وضمن حدود فائدته – بذل الجهد من اجل تقديم الأداء الجيد في الأدارة وفي المقابل يملك زمام أمر مجموعة محددة من رجال الجيش الذين يحتم عليهم ان يكونوا على أهبة الاستعداد تجاه أي طارئ . وتحت هذه الاحتياطات يعد الأمير الزنكي أو الأيوبي من واجبه ضمان الهبات الحقيقية وارث الأقطاعيين ، وشمل الأمر كذلك الجانب التعليمي والثقافي والاقتصادي ، اذ ان ابن المقطع غالباً ما يدرس في مدارس قصر الأمير، إلا انه يفقد إقطاعيته إذا خدم لدى أمير آخر ، لكنه بإمكانه استعادتها إذا عاد أدراجه ، وفيما يخص الميراث فانه يقسّم ويوزع على الأولاد من الذكور والإناث على حد سواء[٧٧] .

وفي الختام يمكن ان نجد تطبيقاً للمبادئ والمعايير التي اخذها كاهن على نفسه في دراسته لمراسلات ضياء الدين على النحو الاتي ١ــ مما لاشك فيه أن كاهن قد اختار نصاً بالغ الأهمية وقدم دراسة رائدة في هذا المجال , إذ لم يسبقه من المستشرقين في التعريف لضياء الدين سوى المؤرخ الانجليزي (مارجوليوث) ، ٢ــ إن مادة ضياء الدين بن الأثير هي في الأصل ليست مادة تاريخية وإنما مادة أدبية أدرك كاهن قيمتها التاريخية ونبّه إليها،٣ــ إن كاهن لم يكتف بمخطوطة واحدة , بل سعى للبحث عن المخطوطات المتعددة للرسائل . والجدير بالانتباه أن الاهتمام بالرسائل يختلف عن الاهتمام بالمصادر التاريخية ،

فالرسائل ليست كتاباً بين دفتين وإنما هي مقاطع وفصول قد تشترك أو تختلف المخطوطات المتناثرة منها وهكذا يصعب الجمع بينها ومقارنة نصوصها ، ٤ــ واثناء دراسته للرسائل استطاع أن يفرز فيما بينها ويستخلص تواريخ التأليف لمخطوطاتها المتعددة أيها اختصت بالمرحلة المبكرة من حياة ضياء الدين , وأيها للمرحلة المتأخرة منها,وكأنه يومئ للباحثين اللاحقين بضرورة إيجاد وجمع ما يزال مفقوداً من مخطوطات الرسائل لاعطاء صورة متكاملة لحياة ضياء الدين وعصره .

الخاتمة

تعد دراسة المستشرق كلود كاهن لضياء الدين بن الأثير ورسائله حلقة من سلسلة حلقات أضاء بها جوانب لم تحظ بالاهتمام الكافي ونبّه من جاء بعده الى أهميتها ، وان مايميزه عن بقية أقرانه انه حاول على نحو يسير الأنعتاق من الجسد التقليدي للاستشراق الذي لايعتد كثيرا بالمعلومات التي قدمتها المصادر العربية للحروب الصليبية ــ سوى ماتُرجم منها لبعض اللغات الأوربية على نحو مجتزأ بناء على ما يوافق رغباتهم ويتوائم مع أهدافهم ــ على اعتبار أن هذه الحروب لم تكن الاّ ظاهرة أوربية بحته ، في حين أن كاهن على امتداد دراساته لهذا الحقل كان يتبع منهجا صارما, وأختط لنفسه طريقا متفردا في دراسة مصادر الحروب الصليبية, مؤكدا على قيمة وأهمية النظرة التي جسدتها المصادر العربية التي لاغنى عنها في تقديم تاريخ متكامل عن الحروب الصليبية , لذا فهي دعوة منه للاعتراف بان الطرف الآخر في ساحة المعركة جدير بان تُسمع شهادته.

وهكذا جاء اهتمامه بضياء الدين بن الأثير المرتبط بجانب مهم من تاريخ هذه الحروب لصلته بالسلطان صلاح الدين الأيوبي الأثر الإسلامي الأعلى فيها ، وبرسائله بوصفها وثائق مهمة عن طبيعة العصر وتداعياته التي عاشها كاتبها ومؤلفها بتقديمها أضاءات عن نظم الإدارة الأيوبية ، مؤكدا على أهميتها ومشيرا إلى قيمتها التاريخية . وقبل ذلك كله قدم عرضا وافيا عن أهم المخطوطات التي ضمتها الرسائل ، إلا أنه لا يمكن التغاضي أو التنكّب عن الدراسات العربية المعاصرة التي تجاوزت بتحقيقها لنصوص الرسائل ونشرها على أيدي علماء إعلام من قبيل المقدسي وهلال ناجي ونوري القيسي وسواهم , كونها مثلت تجددا دفاعيا أمام زحف مقالات علمية استشراقية للرسائل والتي كان لها الفشوّ والغلبة ,لكن

يبقى لكاهن فضل الريادة في هذا الجانب وان لا يعفيه ذلك من هنات جرى الحديث عنها هنا وهناك في متن البحث , وهذا ما جُبل عليه البشر من محددات في العقل والجهد .

الهوامش

(١) مجمع الكتابات والآداب : وهو احد أهم المجموعات العلمية النفيسة ، الذي اهتم كثيراً بدراسة المؤرخين الغربيين ونتاجاتهم ولاسيما حوادث فرنسا ما وراء البحار وليم الصوري ثم تواريخ الحملة الصليبية الأولى لمجموعة مؤرخين من اللاتين ، فضلاً عن المؤرخين الشرقيين ومؤرخي اليونان وأخيراً الاهتمام بدراسة ونشر الوثائق الارمنية عن تاريخ الحروب الصليبية . ينظر: نجيب العقيقي ، المستشرقون (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤) ، ج١، ص ١٦٤-١٦٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ج١، ص ١٦٥ .

(٣) ميشو : مستشرق فرنسي من الأعلام المتضلعين في تاريخ المغرب الأقصى واجتماعه وعلومه ، وناشر الكتب والأبحاث المفيدة عنه ، اقام زمناً مديراً للبعثة العلمية الفرنسية بطنجة . للمزيد من التفاصيل ينظر : المرجع نفسه ، ج١، ٢٣٣ .

(٤) رينو : من كبار المستشرقين الفرنسيين ، ولد في مدينة لامبسك عام ١٧٩٥ وكان من تلاميذ المستشرق دي ساسي ومقتفي آثاره ، عين أميناً على المخطوطات الشرقية في مكتبة باريس ، وعضواً في المعهد العلمي، وأستاذاً للعربية في مدرسة اللغات الشرقية ثم رئيساً لها ، نشر العديد من الدراسات والبحوث عن الحروب الصليبية ، توفي في باريس عام ١٨٦٧ . ينظر: المرجع نفسه ، ج١، ص ١٨٩ .

(٥) المرجع نفسه والجزء والصفحة .

(٦) حدث الاقتتال بين الدروز والموارنة في جبل لبنان عام ١٨٦٠ م وأدى إلى مقتل المئات وفي روايات الألوف من النصارى حيث لعبت عوامل عديدة في ظهور هذه الفتنة كان أبرزها التدخل الأوربي في شؤون الدولة العثمانية وبلاد الشام على وجه الخصوص من خلال نظام الامتيازات الأجنبية فضلا عن التنظيمات العثمانية التي عملت على ارتفاع شأن النصارى على حساب المسلمين والدروز مما أدى في نهاية المطاف ونتيجة لعوامل معينة إلى قيام هذه الفتنة التي انتقلت إلى دمشق في تموز من نفس العام والتي قتلت آلاف النصارى في المدينة الأمر الذي أدى إلى تدخل أوربي بشكل عام وفرنسي بشكل خاص أدى في نهاية الأمر إلى اتفاق هذه الدول مع الدولة العثمانية إلى إنشاء نظام المتصرفية عام ١٨٦١ م ، أصبحت لبنان تحكم بموجب ذلك من قبل حاكم نصراني عثماني على أن يكون من خارج بلاد الشام وأستمر نظام المتصرفية حتى قيام الحرب العالمية الأولى واحتلال بلاد الشام من قبل فرنسا عام ١٩٢٠ م ٠ للمزيد من التفاصيل ينظر:

كمال سليمان الصليبي ، تاريخ لبنان الحديث (بيروت ، دار النهار للنشر ،١٩٦٧)،ص ١٣٥-١٤١ ، وعن نظام المتصرفية ينظر : احمد طربين ، لبنــان منــذ عهد المتصرفية إلى بدايــة الانتــداب ١٨٦١- ١٩٢٠ (القاهرة ،معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٨) .

(٧) للمزيد من التفاصيل عن هذه المجموعة ، واعمالها وأهدافها ينظر :

Atiya . A . S , The Crusade Histriography and Bibliography (Bloomington , Indiana University Press : ١٩٦٢) pp ٢٩-٤٧ .

(٨) يعد المؤرؤخ الفرنسي رينييه كروسيه الرائد في هذا المجال من خلال الملاحظات التي قدمها في كتابه : Rene Grousset , Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem (Paris: Librairie Plon : ١٩٣٥) , p ١-٢٠ .

(٩) أبو منصور قايماز بن عبد الله الزيني ، الملقب بمجاهد الدين الخادم ، تولى الحكم باربل نيابة عن مولاه علي بن بكتكين والد مظفر الدين كوكبوري سنة (٥٥٩ هـ / ١١٦٣ م) وانتقل الى الموصل سنة (٥٧١ هـ / ١١٧٥ م) متوليا ادارتها في عهد سيف الدين غازي ، وبعد وفاته تولى اخوه عز الدين مسعود حكم الموصل فدبر رجال دولته مؤامرة على مجاهد الدين نكاية به ، فقبض عليه سنة (٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) ثم أعيد إلى منصبه بعد الإفراج عنه إلى حين وفاته . وكان فاضــلا ، دينــا ، خيــرا كثيــر العبــادات والصداقات ومن أعماله العمرانية بناء جامع كبير ومدارس وقناطر وبيمارستان . ينظر : عز الدين بــن الأثير ، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد ، الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق : عبد القــادر احمــد طليمات (القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٣) ، ص ١٧٧ ، ١٩٣.

(١٠) ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمــان ، تحقيــق : إحسان عباس ، (بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٧) ، ج٥ ، ص٣٨٩ .

(١١) بدوي ، عبد الرحمن : موسوعة المستشرقون (بيــروت ، دار العلــم للملايــين ، ١٩٨١) ، ج١ ، ص٤٦٠.

(١٢) http : // en . wikipedia . org / wiki / claude cahen .

(١٣) http : // en . wikipedia . org / wiki / claude cahen .

(١٤) http : // en . wikipedia . org / wiki / claude cahen .

(١٥) العقيقي ، المستشرقون ، ج١ ، ص٣٢٣-٣٢٤ .

(١٦) http : // en . wikipedia . org / wiki / claude cahen

(١٧) بدوي ، عبد الرحمن ، المستشرقين ، ص٤٦٠ .

(١٨) المرجع نفسه والصفحة .

(١٩) http : // en . wikipedia . org / wiki / claude cahen

(٢٠) كلــود كــاهن ، الــشرق والغــرب زمــن الحــروب الــصليبية ، ترجمــة : احمــد الــشيخ ، القاهرة ، دار سينا للنشر ، ١٩٩٥) ، ص٢٠ .

(٢١) هاملتون جب : مستشرق انكليزي ولد في مدينة الاسكندرية في مصـــر سنة (١٣١٣هـ /١٨٩٥م) وكان أبوه ناظر زراعة في شركة أبو قير لاستصلاح الأراضي ، وتعلم في اسكتلندة في المدرســة الثانويــة الملكية ودخل في سنة (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م) جامعة ادنبره ، حيث تخصص في اللغات الــسامية : العربيــة والعبرية والآرامية وفي عام (١٣٤٠هـ /١٩٢٢م) حصل على درجة الماجستير من جامعة لندن وعين فيها

مدرساً للغة العربية . وفي عام (١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م) صار مديراً لمركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفرد الأمريكية ، ثم أمضى بقية عمره في اكسفورد حتى توفي فيها سنة (١٣٩١هـ/ ١٩٧١م) . ترك العديد من الأعمال والمؤلفات التي توزعت بين ثلاثة ميادين : الأدب العربي ، التاريخ الإسلامي ، الأفكار السياسية الدينية في الإسلام ، ومن أهم مؤلفاته : " فتوح العرب في آسيا الوسطى " و " المجتمع الإسلامي والغرب في القرن الثامن عشر " وللمزيد من التفاصيل ينظر : بدوي ، موسوعة المستشرقون ، ج١ ، ص١٧٤-١٧٥ .

(٢٢) مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية في جامعة لندن : وهي المؤسسة الاكاديمية التي أنشأتها الحكومة البريطانية سنة (١٩١٧) في عاصمتها لندن لتنمية الدراسات الشرقية على غرار المدارس التي أقيمت في عواصم بعض الدول الأوربية كفرنسا وألمانيا لان هناك قصور في معرفة هذه الدراسات وهو بما لا يتفق وتعاظم المصالح البريطانية في الشرق , وأكد مؤسسيها على الأهداف السياسية والاقتصادية وراء إنشائها باعتبارها ستقدم مكانا يلتقي فيه أولئك الموظفون الإداريون والعسكريون الذاهبون إلى المستعمرات البريطانية في آسيا وإفريقيا ليأخذوا دروسا في لغات وآداب واديان وعادات وتقاليد أبناء هذه المستعمرات فنفوذهم وتأثيرهم نابع من درايتهم بشخصية وأفكار وأنظمة هذه الشعوب , وموضوعات المدرسة تنصب في تقديمها دروسا في لغات الشعوب الأسيوية والإفريقية , قديمها وحديثها بجانب آدابها وتاريخها وأديانها وعاداتها وتقاليدها , وقد انقسمت المدرسة إلى سبعة أقسام وفق المجاميع اللغوية الآتية : ١ـ لغات الهند الشرقية ٢ـ لغات الشرق الأوسط وهي العربية والفارسية والتركية ٣ـ لغات شمال الهند ٤ـ لغات جنوب الهند ٥ـ اللغات الهندية الأخرى ٦ـ لغات الشرق الأوسط .. صينية , يابانية , تبتية , ٧ـ اللغات الافريقية . للمزيد من التفاصيل ينظر : الملا جاسم ، ناصر عبد الرزاق , الإسلام والغرب – دراسات في نقد الاستشراق (عمان ، دار المناهج ، ٢٠٠٤) , ص ٢٩ـ ٣٢ .

(٢٣) Gibb . H . A . R . , ; " Notes on the Arabic Materials for the History of the Early Crusades " BSOAS , Vol VII , ١٩٣٣ – ١٩٣٥ , P . ٧٥٤ .

(٢٤) برنارد لويس و ب.م.هولت ، مؤرخو العرب والاسلام حتى العصر الحديث ، ترجمة : سهيل زكار (دمشق ، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر ، ٢٠٠٨) ، ص ١٦١-١٦٢ .

(٢٥) Anne-Marie Edde , "Claude Cahen et les sources arabes des croisades" Arabica , T.٤٣, ١٩٦٦, p ٨٩ .

(٢٦) Ibid , p . ٨٩ .

(٢٧) العقيقي ، المستشرقون ، ج١، ص ٣٢٣-٣٢٤ .

(٢٨) Anne-Marie Edde , "Claude Cahen…", p. ٩٠ .

(٢٩) Ibid , p .٩٠ .

(٣٠) http : // en . wikipedia . org / wiki / claude cahen .

(٣١) Anne-Marie Edde , "Claude Cahen…", p. ٩٠-٩١ .

(٣٢) Ibid , p . ٩٠-٩١ .

(٣٣) Ibid , p . ٩٢ .

(٣٤) Ibid , p . ٩٢ .

(٣٥) Ibid , p . ٩٤ .

(٣٦) C. Cahen : " La correspondance de Diyâ ad-Din ibn al-Athir list de letters et textes de diplomes ", BSOAS , Vo١. X١V , ١٩٥٢ , p.٣٤.

(٣٧) مارجوليوث : ولد وتوفي في لندن ، وقد تخرج باللغات الشرقية في جامعة إكسفورد ، وأتقن اللغة العربية وكتب فيها بسلاسة وأقام أستاذاً لها في جامعة إكسفورد سنة (١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩م) وعد من أشهر أساتذتها . كما عمل رئيساً لتحرير مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ونشر فيها بحوث قيمة ، وكان لآرائه قدرها لدى أدباء العرب المعاصرين . أنتخب عضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق والمجمع اللغوي البريطاني ، والجمعية الشرقية الألمانية وغيرها . ترك العديد من الدراسات والابحاث والتحقيقات في الأدب والتاريخ وغيرها من الدراسات المترجمة الأخرى ، ينظر : العقيقي : المستشرقون ، ج٢ ص ٥١٨ .

(٣٨) مكتبة البودليان : وهي مكتبة تابعة لجامعة اكسفورد ، أسست سنة (١٦٠٢م) من قبل العالم السياسي توماس بودلي بعد استقالته من الحكومة والذي افتتحها بـ (٢٠٠) كتاب ، ثم أغرى الكثيرين من أصدقائه بإهدائها فرائد المخطوطات ونفائس الكتب وحمّل الحكومة على تقديم نسخة لها من كل كتاب يطبع في البلاد . ثم ضمت إلها مجموعات مخطوطات نفيسة منها مكتبة بوكوك (٤٢٠) مخطوطاً ومجموعة هنتجتون (٨٨) مخطوطاً أغلبها عربي . ينظر : المرجع نفسه ، ج٢ ، ص ٤٥٢ .

(٣٩) ومما يؤسف عليه ، رغم الجهود والمراسلات المبذولة من قبل الباحث تعذر عليه الحصول على نسخة من هذه الدراسة وبذلك جاءت معلوماته استناداً إلى التنويهات التي تركتها الدراسات اللاحقة ، للتفاصيل ينظر:

C. Cahen : " L a correspondance de , p.٣٤ ; Rosenthal, "Ibn al-athir" EI٢ ,Vol.III, p.٧٢٥.

وينظر : أنيس المقدسي : " الدولة الايوبية في رسائل ابن الأثير " ، مجلة الأبحاث (بيروت ، الجامعة الأمريكية ، ١٩٦٥) ، ج ٣-٤ ، ص٣٠٥ .

(٤٠) Cahen : " La correspondence …" , p.٣٤ .

(٤١) Ibid, p.٣٤

(٤٢) Ibid, p.٣٤.

(٤٣) Ibid, P.٣٤.

(٤٤) Ibid, p.٣٤.

(٤٥) Ibid, p.٣٤.

وينظر المقدسي: الدولة الأيوبية في رسائل ابن الأثير، ص ٣٠٥-٣٠٦ .

(٤٦) ضياء الدين بن الأثير : رسائل ابن الأثير ، تحقيق : أنيس المقدسي ، مطبوعة بمساعدة المجمع العلمي العراقي (بيروت ، ١٩٥٩) .

(٤٧) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي، ترجمة : السيد يعقوب بكر ، مراجعة: رمضان عبد التواب (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٥) ، ج٥ ، ص٢٧٤ . وعن روزنثال ينظر:

Rosenthal : "Ibn al-athir" , p.٧٢٤ .

(٤٨) ضياء الدين بن الأثير : ديوان رسائل ضياء الدين ابن الأثير ، تحقيق هلال ناجي (الموصل ، مطبعة جامعة الموصل ،١٩٨٢).

(٤٩) رسائل ابن الأثير ، تحقيق : نوري حمودي القيسي وهلال ناجي (الموصل ، مطبعة جامعة الموصل ، ١٩٨٢) .

(٥٠) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٣٨٩

(٥١) كمال الدين أبي البركات ، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان ، تحقيق : محمد قاسم مصطفى وغانم سعيد حسن ، غير منشور (بحوزة الأستاذ الدكتور عبد الوهاب العدواني ، قسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، جامعة الموصل) ، ج٩ ، ص٦٢ .

(٥٢) اليونيني ، قطب الدين ابي الفتح موسى بن محمد ، ذيل مرآة الزمان (حيدر آباد ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٤) ، ج١ ، ص٦٥-٧٠ ؛ القلقشندي ، احمد بن علي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، نسخة مصورة عن مطبعة الاميرية ، (القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة ، ١٩٦٣) ، ج٦ ، ص٢٢٧ ؛ ج١٠ ، ص٧ .

(٥٣) Cahen : " La Correspondene…" , p . ٣٤ .

(٥٤) Ibid, p.٣٥ .

(٥٥) Ibid, p.٣٥ .

(٥٦) دون شك فان الموصل قد تعرضت لثلاث محاولات متكررة لحصارها العسكري من قبل السلطان صلاح الدين , وكانت المحاولة الأولى سنة (٥٧٨هـ /١١٨٢م) في حين كان تزمين المحاولتين الثانية والثالثة ضمن أحداث سنة (٥٨١ هـ / ١١٨٥م) , وانتهى الأمر بعقد صلح ضمن صلاح الدين بموجبه إخضاع الموصل وكسب تأييدها له وتحالفها معه وهكذا تحققت أهدافه بضم الموصل وسنجار وحلب لإكمال حلقات الجبهة الإسلامية الممتدة حتى مصر سعيا منه لتحقيق جهاده الأعظم ضد الصليبيين وتحرير بيت المقدس . ينظر :

رشيد الجميلي , دولة الاتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي (بيروت , دارالنهضة العربية , ١٩٧١) , ص ١٣٨ ـــ ١٥٩. وكذلك ينظر :

Cahen , claude: Lasyrie du Nord , époque des Croisades ,Paris ,١٩٤٠, P.٤٢٠- ٤٢٤ ; Grousset: Historie des Croisades , Paris, ١٩٣٥, P.٧١٣-٧٦٢; Stevenson,W.B: The Crusaders in the East, Cambridge,١٩٠٧,P.٢٣٠-٢٣٦.

(٥٧) وفيات الاعيان ، ج٥ ، ص٣٩٠ .

(٥٨) وهي مخطوطة في مكتبة البودليان التابعة لجامعة اكسفورد تحت رقم (pococke ٣٢٢) والتي لا تضم سوى الرسائل التي تحتوي على الحقبة الأخيرة من حياة ضياء الدين بن الأثير . ينظر : Cahen : " La Correspondene…" , p .٣٤ . – وقارن كذلك مع : ضياء الدين بن الأثير ، رسائل ابن الأثير ، نشرة المقدسي ، ص١٤٩-١٥٦ .

(٥٩) ضياء الدين بن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، (القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٣٩) ، ج٢ ، ص١٤٠-١٤٧ .

(٦٠) Cahen : " La Correspondene…" , p .٣٥ .



(٦١) عن ذلك ينظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٣٩٠ ؛ وترد صدى اقتباسات ابن خلكان لسيرة ورسائل ضياء الدين بن الأثير على صفحات كلاً من : اليونيني ، ج١ ، ص٦٥-٧٠ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ج٦ ، ص٢٢٧ ؛ ج١٠ ، ص٧ .

(٦٢) ضياء الدين بن الاثير ، رسائل ابن الاثير ، تحقيق : نوري حمودي القيسي وهلال ناجي ، ص٦٤ . وعن أحداث الحملة ينظر : أبو شامة شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن ، الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تعليق : إبراهيم شمس الدين ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٢) ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٩٨-٢٠٢ .

(٦٣) عزالدين ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد ، الكامل في التاريخ (بيروت ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٦٦) ج١٠، ص ١٤٧-١٤٨ .

(٦٤) ضياء الدين بن الأثير ، رسائل ابن الأثير ، نشرة : أنيس المقدسي ، ص١٤٩-١٥٦ .

(٦٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص ٣٩٠ .

(٦٦)Cahen : " La Correspondene…" , p .٣٧ .

(٦٧) صرخد : قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة ملاصقة لحوران من اعمال دمشق ، ينظر : ياقوت الحموي ، شهاب الدين عبدالله ، معجم البلدان (بيروت ، دار صادر ، ١٩٥٥) ، ج١، ص ٤٠١ .

(٦٨) Cahen : " La Correspondene…" , p .٣٥ .

وينظر: ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ، تحقيق : جمال الدين الشيال (القاهرة، مطابع دار القلم، ١٩٦٠) ،ج٣، ص ١٥٢ .

(٦٩) Cahen : " La Correspondene…" , p .٣٤ .

(٧٠) ابو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ، مج ٢ ، ج٤ ، ص ٢٥١ ؛ سبط ابن الجوزي ، شمس الدين أبي المظفر يوسف ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان (حيدر آباد ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٢) ،ج٨، ق٢ ، ص ٤٤١-٤٤٢ .

(٧١) Cahen : " La Correspondene…" , p .٣٦ .

(٧٢) Ibid, p.٣٨ .

(٧٣) Ibid, p.٣٨ .

(٧٤) Ibid, p.٣٨ .

(٧٥) Ibid, p.٣٨ .

(٧٦) Ibid, p.٣٨ .

وينظر: الملحق بعد الهوامش الذي أوردنا فيه نص الوثيقة التي ساقها كاهن في بحثه بالنص العربي,ص٤٠ .

(٧٧) Cahen : " La Correspondene…", p.٣٨ .

ملحق وثيقة الوالي

قال النبي صلى الله عليه وسلم أن من أبر البر يصل الرجل أهل ود أبيه بعد ما توفي وهذا فلان بن فلان رحمه الله صحب الإسلاف واحدا بعد واحدا ودرجوا وكلهم لصحبته خدخانة (؟) وهو من أبناء

الدولة الذين شهدوا مطلع سعدها و وردوا أول وردها وإذا عد السابقون الأولون كان ابن سمتها و ابن أم عبدها و ادركناه نحن وقد ذهب عناءه وأسترم بناءه وكادت نفسه أن تشقى على شرقها ولم يبقَ من شمس عمره شئ سوى شفقها فأقررنا في وكره وأعناه على دهره وقنعنا من خدمته بالدعاء الذي هو من خدمة تخف على ظهره ولم نلقه يوما من الأيام إلا و خدمنا بلقاءة عظة خاشع وأخذنا بها أهبه وآه رافع واستقرئنا منه إخبار الدولة فرواها رواية راء لا رواية سامع فرحمه الله رحمة يعطيه كتابه باليمين ويؤمنه رهن المكتسب الذي كل أمرئي به رهين ولما مضى حلفناه في عقبه برا و أحسانا وجعلناهم التوكل علينا كالطير تغذوا خماصا و تروح بطانا وقد أصرناهم إلى غاية لم يفقدهم منه شيا سوى شخصه ولا أرثهم من بره بهم نقصا حتى يشكوا مكان نقصه وهكذا مشأتنا بحفظ الحي للميت ونقيم دعامة البيت بأسره لواحد من أهل البيت وإذا شمل عطائنا قوما حصلناه من بعدهم ميراثا وسوينا فيه بين الأولاد ذكورا وإناثا والعطاء عندنا يتوارث ولو بسبب قصي ولا يكون محتاجا إلى عهدة موص إلى وصي وقد أجرينا لأولاد هذا الرجل ما كان لأبيهم يجتلتون دره غبوتا وصبوحا ولا يفتقرون فيه إلى مسالة تكون في الوجه كدوحا فليثقوا أنه يأتيهم موفرا مكملا من غير وكس ولا وضيعة وأنه عار من الامتنان الذي هو هدم البناء الصنيعة ونحن من وراء كلما يؤملونه من لين رياش وتمهيد فراش و أصلاح أطراف وحواش ومن الله سبحانه نستمد توفيقنا ونسأله من مدد الإعانة رفيقا والسلام أن شاء الله تعالى ٠